عن الشخصية الفنية في الأدب

محمود عبد الوهاب

ساهم العلماء ـ كل من زاويته ـ في تصوير أحد ملامح الانسان ، فتحدثوا عن مخلوق يلاحقه كقدر ، حتم وراثي او تشكل شخصيته عقده النفسية واحباطاته ... الخ ، او تشارك في تحديد طبيعة بنائه العقلي والوجداني انواع المعوقات التي تعترض حياته من الطبيعة او المجتمع .

وقد حاول الفلاسفة أن يستخلصوا ـ على قدر الضوء المتاح ـ ملامحه الكلية فتحدثوا عن انسان تتضخم ذاته ـ عند البعض ـ حتى تمنح العالم الموضوعي حقيقة وجوده ، وتستقل عند البعض الى حد يتحول معه المجتمع الى محيط من الجزر المنعزلة ، وتتضاءل عند آخرين الى درجة يصبح معها انتماؤها الى طبقة اجتماعية هو قانون حركتها وارادة طموحها وجماع تاريخها والسر الكامن خلف مواقفها واسباب اعتناقها لعقائدها والعامل الجوهري وراء تطورها او ترديها .

لكن الانسان ظل اكبر من دراسات علمية لا تعرف كل منها عنه الا بعدا وحيدا ، وظل اشمل واكثر تعقيدا من مذاهب فلسفية تقمعه حينا فلا يتجاوز وجوده حدود غرائزه ومصالحه الفردية ، وتخلعه حينا آخر من جذره الحيوي والاجتماعي لتجعل منه عقلا خالصا أو تجسيدا لطاقة حيوية أو قبسا من نور خالد ... الخ.

وقد تطورت أساليب البناء المعماري والجمالي في الاشكال الادبية كنتيجة لمواكبة الادباء لاكتشافات العلماء ومذاهب الفلاسفة ، لكن الادب ظل اكثر اساليب المعرفة قربا من الانسان واشملها احاطة بأبعاده وأعمقها فهما لدوافعه واوثقها ارتباطا بتاريخه وأجلاها كشفا لاسرار قوته ومواطن ضعفه .

فكيف اقترب الادباء من الانسان ذلك الاقتراب الحميم وكيف جسدوا رؤاهم الذاتية في معمار روائي هو تجسيد لجوهر صراع القوى الاجتماعية في كل من بعديه الموضوعي والذاتي معا ؟ وكيف استطاعوا خلق شخصيات فنية لها من الحيوية والحضور اكثر مما لملايين البشر الاحياء ؟ وما حقيقة الصدق الفني : ذلك النبع الخالد الذي ينهل منه الادباء جميعا ويحرصون قبل الاحتشاد للخلق أن يعمدوا قلوبهم أولا في مياهه المقدسة ؟

* * *

لا يعرف الادباء ذلك الكائن المنحط كوحش والمتسامي كاله .. المدافع بشراسة عما يملكه وحده والمضحي بحياته لكي يملك الجميع .. الجلاد والمناضل معا .. الفاجر والقديس معا .. يهوذا والمسيح معا .. الذي نسميه الانسان .

انهم يعرفون حقيقة وحيدة هي انه كائن وهمي نبع كل ما له من وجود لفظي من حاجة الى نحت مصطلح لغوي يحتوي تلك الكتلة الهائلة : الصلبة والخائرة معا.. البناءة والمخربة معا .. العاهرة والجليلة معا التي نسميها البشرية .

ان الادباء لا يعرفون ذلك الحشد الجماهيري المنتشر فوق سطح الكرة الارضية والمقسم طبقا لمواقعه أو على قدر مساحة ما يشغله من سطح اليابس أو وفقا لما اصطلح على اعتباره حدودا دولية . انهم يطرحون جانبا تلك الكتلة الضخمة من الخلايا الانسانية المبعثرة فوق الخرائط الملونة وينحتون من صخر اللغة القديمة لغة جديدة متحررة من عبء الاحساس بالكم والعدد والمساحة .. لغة يمكنها تصوير حقيقة ترقي الحشود الجماهيرية فوق سلّم هرم حضاري حي : تبدأ قاعدته من حيوان انسان (حيوان ذي ملامح انسانية) استقامت قامته واتسعت جبهته وضاق فكه واستدقت أسنانه وامتلكت أصابعه قدرة القبض على الاشياء وتقلص شعره الغزير الى جيوب متفرقة في بدنه العاري ، لكن ملامحه الانسانية ظلت مجرد قشرة فوق جسد حيواني يسيطر عليه نزوع وحشي للعدوان وانصياع كامل للشهوة واندفاع أعمى لحظة الهياج وامتلاء بغطرسة القوة العضلية وزهوة القدرة على البطش وخيلاء الذاكرة المترعة بمواقف قهر الخصم المتعارك واغتصاب الانثى العصية الشموس .

(تختلف سمات القشرة الانسانية باختلاف الظروف الطبيعية والاجتماعية والحضارية لكل مجتمع.

فتبدو في المجتمعات البدائية مثل غشاء رقيق يكاد يشف عن الوجه الحيواني وتكتسب في المجتمعات المتحضرة قناعا سميكا من آداب السلوك وشعائر العبارات ومحاولة اضفاء ثوب المشروعية الاجتماعية على سلوك هو في الحقيقة انقياد لنزوع حيواني للتسلط والسيطرة) .

وعبر درجات السلم الحضاري تتراجع الذات المتخمة بالانانية (سجينة قضبان اللحم والدم وأسيرة لحظة الجوع ، الشهوة ، الخوف ، الغضب ... الخ) عن هامش ضئيل ينفذ منه آخر ليأخذ قدرا من اهتمامها ورعايتها .. ويكون الآخر في البداية من صلب اهتمام الذات بنفسها ثم يتسع ليشمل الاب والام والعائلة ثم القبيلة ... الخ ، وتتصاعد درجات الهرم فوق مساحات الحب المنتزعة من انانية الذات لتنتهي عند انسان يتسع قلبه للانسانية بأسرها : تؤرقه همومها ويحزنه عجزها ويغضبه هوانها فيحارب في صفوف مناضليها ويكافح في معارك صمودها ويستشهد تحت رايات انتصارها .

(ما أن يتفتح وعي الفرد الانساني ويكتشف غربته عن محيطه حتى تتشعب أمامه السبل وتزول الفواصل بينها وتأخذ السبل التي تفضي الى هاوية الضياع ملامح السبل الهادية الى الرشاد) .

ومن سفح الهرم الانساني حيث الحيوان ذو القشرة الانسانية وحتى قمته حيث الانسان ذو القشرة الحيوانية ومرورا باصطراع المستويات المتعددة وتوزعها بين ارادة الرقي والتجاوز والتخطي وبين وساوس التردي والتهاون والتفريط تتكون مقامات الوجود الانساني المتدافع كنهر حي تتعالى موجاته الحضارية وتبلغ أعلى الذرى في مراحل الاحتشاد الديني والثوري المتعاقبة في تاريخ الشعوب .

ان الادباء يعيدون للجسد الممزق الاشلاء وحدته الحية وللوجوه الانسانية ذات البعد الواحد وحدتها المتكاملة وللاشجار الانسانية المجتثة جذورها العريقة العميقة وللاغصان الانسانية المتهدلة حول الجذوع وفوق تراب الارض سماءها الرحيبة ويرصدون رقي الموجات الانسانية عبر الحوار الدائر بينها وبين العالم الموضوعي : الطبيعي والاجتماعي معا . ويوصلون رقي البنية العقلية والوجدانية للفرد بالكشف عن انبثاقها من رقي اقتصادي واجتماعي وسياسي تطفر منه وتضيف اليه .

ويختار الادباء لتجسيد دراما الصراع الاجتماعي بين قوى التخلف وقوى التقدم لحظة تبشير الطلائع بقيم جديدة وتصدي القوى الرازحة لقمع تطلعاتها المشروعة . ولان ايمان الطلائع الجديدة بالقيم الجديدة يظل في حالة دفاع ـ باطني ـ ضد القيم المتوارثة والتي تحاول التخفي خلف قناع ثوري وافراغ القيم الجديدة من محتواها الثوري .. لذلك يعد احتشاد الكاتب لتجسيد الصراع في بعده الذاتي تجسيدا وكشفا لجوهر الصراع في بعده الموضوعي .

ان الكاتب حين يصور رؤيته لحقيقة الصراع من خلال نماذج انسانية تأخذ نسيجها الحي من تراث وتجارب شعب يبلور المعمار الروائي لب حياته وعصارتها ودمها النقي انما يقدم لاجيال الانسانية جوهر حقيقة الجدل الكوني في صورته العميقة والمتكاملة والشاملة .

ان الشخصية الفنية في الادب ليست نموذجا لحالات نفسية أو معادلا لانماط اجتماعية أو وسائل توضيحية لتصوير ظواهر جغرافية أو تاريخية .. وليست وسيلة للبرهنة على فرض علمي أو التبشير بمذهب فلسفي . انها القوى الاجتماعية قد تجسدت لتعكس دراما الرقي والانحدار .. التقدم والتخلف .. الصمود والانهيار .. الحياة والموت وقد تخلقت في بنية حيوية عقلية وجدانية لها كل خصائص الوجود الانساني المتميز .

وتحيا الشخصية الفنية وتؤثر في أجيال عديدة لان أمواجا انسانية ما زالت تعبر نهر القيم وتتطلع اليها ولان ما بلغته من أحكام البناء وحيوية الحضور وتكامل الابعاد قد حقق لها استقلالا عن الكاتب وقدرة خاصة على التفاعل والتأثير .

والآن كيف يوفق الكاتب في تجسيد الشخصية الفنية الى درجة تحقق لها الاستقلال عنه برغم التمايز الكامل بين طباع الشخصية ومعتقداتها ومزاجها وظروفها التاريخية وبين طباع الكاتب ومعتقداته وطبيعة عصره ؟

يختزل الكاتب ـ فيما نسميه الموهبة ـ درجات الهرم الحضاري الحي في وجدانه .. ان قراءته العديدة في فترات النمو ومراحل التكوين الثقافي ليست تجميعا لحشد من المعلومات والافكار والحقائق والنظريات العلمية أو المذاهب الفلسفية .. انها خطوات رحلته على أرض الحضارات التي تعاقبت على تاريخ البشرية . ان الكاتب يرقى مستويات الوعي الانساني المتبلور عبر المراحل التاريخية المتعاقبة : من الوعي بالذات وانسنة العالم الى الاعتراف للعالم باستقلال ما خارج الذات المهيمنة ومرورا بتكافؤ الذات والعالم في علاقة تأثير وتأثر وحتى بلوغ مرحلة انضواء الذات تحت القوانين الموضوعية التي تشمل الوجود الطبيعي والحيوي والانساني والاجتماعي معا .

ان وعي الكاتب ليس وعيا عقليا أو فلسفيا ، انه وعي وجداني شكلته معاناة قسوة الحياة على حافة الضياع ، وتجرع سم الموت في لذة المتعة ، واستعار شهوة للمعرفة والتوق الى يقين ، واندلاع الحنين الى سلام الطمأنينة في كنف أب اجتماعي قادر ورحيم ، والتوزع بين رغبة في استقرار يرد للوجدان القلق

سكينته وأمنه وشك في صلابة الهياكل المذهبية المطروحة وخوف من عدم قدرتها على التصدي لتفسير المتغيرات اليومية في الواقع المتجدد .

ولا يدرك الكاتب الا لحظة الوصول ان ما كان يأمله ويطمح اليه كان يتشكل وتتحدد ملامحه عبر رحلة المعاناة ودوامات القلق وسورة الشك وعنفوان الرفض . وان ما كان يرفضه من القيم والمعتقدات (لعدم وفائها بمتطلبات الوعي في العصر الجديد) كان يتنامى في قلبه عبر درجات من الحضارات المتعاقبة وان تشكل وجدانه بالقيم المتصاعدة والمتلاحقة هو ما يهبه في النهاية عمق البصيرة وشمول النظرة ورحابة القلب وعراقة الحكمة .

ان درجات الهرم الحضاري ـ في وجدان الكاتب ـ هي أوتار الوجود الانساني التي تحتوي نغماتها كل المستويات ، بدءا من الغليظ الطيني الحيواني البدائي الصاخب ، وانتهاء بالرهيف النبيل المتسامي المتحضر الخافت الهمس .

والصدق الفني هو اهتداء الكاتب الى موقع الشخصية الفنية على احدى درجات الهرم الحضاري الراسخ في قلبه ، وتأكده من تغلغل جذورها في باطن التاريخ الحيوي والانساني المتراكم (مثل طبقات جيولوجية) في وجدانه .

ان الشخصية الفنية تنتزع وجودها الحي ونبض الدماء في شرايينها من معاناة الكاتب لقمع ذاته الفردية ومساعدة الشخصية الفنية على التمايز والاستقلال واعطائها القدرة على أن تصدّ عن ملامحها ظلالا مقحمة من فرديته ، وتنقي لغتها من كلمات تتسرب من قاموسه وتطرد من سمائها أصداء تتردد من عصره وتلفظ من نسيجها خيوطا مراوغة تنتمي الى بيئته وتتمرد على أفكار لا تصدر عن قناعتها وخصائص تكوينها العقلي والثقافي .

ان صراع الكاتب مع شخصياته هو صراع اللاهوت والناسوت في قلب مسيح وحرصه على تحقيق أقصى مستويات الحضور الفني لشخصياته على حساب غيابه الكامل كفرد ، هو تضحية بفرديته على مذبح الحياة الدائمة لرؤيته لحقائق الكون والقلب الانساني معا .. وهو تحويل للطاقة الحيوية في جسده الى قوة صدق ونبل وكبرياء تسري في قيم ملهمة ومضيئة على درب طريق الانسانية نحو الحرية والعدل ، وهو تعميد للكلمات كي تتحول من هياكل نظرية الى معمار يقيني يتغلغل راسخا في قلب الشعب فيمنحه الصلابة والجلد والاصرار . أو هو ـ في كلمة ـ صلب يسوع الفرد البشري الفاني القصير العمر من أجل قيامة المسيح الهادي المبشر الحي الخالد .

القاهرة

صدر حديثا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب